المحاضرة السادسة: تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة السعديون والعلويون.

كان لتهالك الدولة الوطاسية وسقوط غرناطة سنة 1492م، أثر في تشكل نظام جديد بدأه البرتغاليون بالإستيلاء على الجنوب البرتغالي ووصلوا حتى بلغوا سوس، وهذا كلّه في غفلة من الوطاسيون الذين كانوا منشغلين عن الوضع بالصراع الداخلي ومحاربة الإسبان في الشمال، الأمر الذي استلزم حاجة العامة في الجنوب الغربي للمغرب الأقصى المقابل للمحيط الأطلسي، إلى سلطة توحدهم لمقاومة البرتغاليين وطردهم، ليلتفوا في النهاية حول الدولة السعدية التي لم تحرر فقط الجنوب المغربي، بل أقامت دولة أسقطت الوطاسيين وحكمت المغرب الأقصى.

1-الدولة السعدية:

يذكر المؤرخون أنّ نسب الدولة السعدية يرجع إلى أسرة شريفة تنحدر من نسل محمد الزكية[1]، "ويذكر السلاوي أن سبب قدوم السعديين هو أن أحد الصلحاء قد أشار على أهل المنطقة التي كانت أرضهم قليلة الخصوبة، بأن يستقدموا إليهم أحد الأِشراف من الحجاز لعل الأرض تنبت من بعد ذلك زرعا".[2]وقيل أن سبب تسميتهم بالسعديين أن "أعداءهم كانوا ينسبونهم إلى بني سعد بن بكر، كي ينزعوا عنهم النسب الشريف"[3] فلا يتبعهم العامة.

---

[1] صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ط06، المكتبة الأنجلو مصرية، 1993، ص50.

[2] الناصري، الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة البعدية، تح. جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م، ج5، ص03.

محمود عاشور عبيد الحسيناوي، موقف الدولة السعدية من مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة 1510-1659م، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة ذي قار، 2013م، ص26.

[3] الناصري، مصدر سابق، ص06.

وتتفق المصادر أن فريقا من السعديين الأوائل قد نزحوا إلى وادي درعة في الجنوب المغربي مطلع القرن الرابع عشر، وهناك بدأوا في نشر دعوتهم عن طريق الطرق الصوفية في الجنوب المغربي، وربما يعود استخدامهم لهاته الطرق كون أغلب ساكنة المغرب خلال هذا العصر كانوا من الصوفية، ولهذا فقد رأى السعديون أن تجميع الحشود حولهم يجب أن يتم بداية تحت طائلة الوازع.

وهكذا بدأ عودهم يشتد ويقوى، خاصة وأنهم لاقوا القبول عند فئة كبيرة من الجنوب المغربي، وورد في مؤلف مجهول: "كانوا في بداية أمرهم وظهور جهادهم من سوس مولا محمد الشيخ وأخيه أحمد الأعرج... وقد حدث عنهم أهل البلاد أنهم كانوا ذات يوم يقرؤون بالمحاضر بين يدي المعلم... فإذا بديك طار ونزل على رأس مولاي محمد الشيخ... فخرج الفقيه لأهل القرية وأعلمهم... أنه سيكون لهذين الشابين شأن عظيم وأمار على أهل المغرب".[4]

ومع مطلع القرن السادس عشر بدأ البرتغاليون في التوسع على السواحل الجنوبية للمغرب، بما في ذلك منطقة سوس، وإقامة قواعد ومراكز وحاميات عسكرية عليها، خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد والتعرف على طريق الهند، وفي الوقت الذي استكانت فيه قبائل المناطق الساحلية إلى الاستسلام والدخول تحت الحماية البرتغالية، حيث تثبت إحدى الرسائل "التي وجهها أهل هاته المناطق إلى الملك البرتغالي، يخبرونه فيها عن مدى سرورهم وفرحهم لما علموا أن الملك البرتغالي قد عزم على إقامة قوات عسكرية ببلادهم، ويشكون له غضب جيرانهم العرب من قرارهم نحو البرتغاليين".[5]

---

[4] مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تح: عبد الرحيم بن حادة، دار تينمل، مراكش، 1994، ص13.

[5] عبد الكريم كريّم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006، ص35.

وبهذا أصبح لزاما على أهل منطقة سوس إيجاد حاكم يحميها من هذا الغزو البرتغالي، فيذكر صاحب زهرة الشماريخ "أن سبب قيام أبي عبد الله القائم أن أهل سوس أحاط بهم العدو... واستحكمت شوكة البرتغاليين فيهم وبقي المسلمون في أمر مريج... لأن بني وطاس فضلت ريحهم يومئذ في بلاد السوس... فذهب أهلها إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك الأقاوي نسبة إلى آقة من بلاد السوس... فامتنع من ذلك، وأشار إليهم إلى أبي عبد الله..."،[6] الذي ولوه عليهم سنة 1509م.

وبعد وفاة القائم بالله سنة 1517م انتقل الحكم إلى ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج، فتمكنا من طرد البرتغاليين من آسفي وآزمور في الجنوب بين سنتي 1529-1541م، وغم أن الملك الوطاسي الملقب بالبرتقالي قد عرض على السعديين مدينة مراكش، إلاّ أن محمد الشيخ رفض الأمر ودخل في صراع مع شقيقه والملك الوطاسي، ذلك أنه كان يطمع إلى الاستيلاء على المغرب الأقصى قاطبة، فدخل فاس سنة 1549م وأعلن نفسه سلطانا.[7]

يعتبر المؤرخون المغاربة محمد المهدي هو المؤسس الفعلي لدولة السعديين، لتبدأ مرحلة جديدة من التوسع والجهاد، فخلال "الفترة الممتدة بين سنتي 1549م -1550م تمكن السعديون من استعادة أصيلة والقصر الصغير من البرتغاليين، حيث لم يتبقى بعد ذلك للبرتغاليين سوى طنجة وسبتة ومزغان تقوم بالدفاع عنها حاميات ضعيفة لا يتجاوز عدد أفرادها 2500 رجل".[8]

ورغم القوة التي امتازت بها الدولة السعدية في بداية نشوؤها إلاّ أن النزاع الداخلي ومشاكلها الخارجية، عجّلت في ظهور بوادر انهيارها، "بداية باستقبال حسن باشا الملك الوطاسي المهزوم

---

[6] الناصري، الاستقصاء...، ج05، ص07.

[7] صلاح العقاد، مرجع سابق، 51.

[8] المرجع نفسه، ص51.

واعترافه به سلطانا على المغرب، ثم شنّ صالح باشا حملة على فاس لإرجاع أبي حسون الوطاسي إلى حكم المغرب سنة 1554م، "أين تمكنوا من قتل محمد الشيخ سنة 1557"[9]، وكرد على الفعل العثماني فإن السعديين قاموا بقتل أبي حسون والقضاء نهائيا على سلطة الوطاسيين في المغرب".[10]

تولى مولاي عبد الله الغالب السلطة في ظروف صعبة، حيث نشب صراع بينه وبين أشقائه الثلاثة على الملك خاصة بعد تحالفه مع البرتغاليين، وهكذا لجأ الإخوة الثلاثة عبد الملك وأحمد وعبد المؤمن إلى الجزائر، حيث غزى حسن "باشا في عهده فاس سنة 1558 والتقى الجمعان في معركة وادي اللبن"[11] حيث تمكن من الانتصار على الجزائريين، ولإبقاء العثمانيين على الحياد راح الغالب يدفع مبالغ طائلة لهم"

توفي الغالب بالله سنة 1574م حيث تولى الحكم خلفا عنه محمد المتوكل، الذي تحالف مع البرتغاليين أملا في صد التوسع الجزائري–العثماني، فتحالف ضدّه كلّ من أحمد المنصور وعبد المؤمن وعبد الملك وسارعوا إلى نجدة الجزائريين، وهكذا مدّ حاكم الجزائر الأعمام الثلاثة السلاح والمؤن ضد ابن أخيهم المتوكل.[12]

انطلقت حملة من الجزائر يقودها حاكم الجزائر والأعمام الثلاثة فدخلوا فاس في حين استقر المتوكل في مراكش، واستمر يحارب أعمامه عامين كاملين، ليفرّ بعدها نحو البرتغاليين في

---

[9] "Saʿdids", Encyclopaedia of Islam, T.08, Brill, 1910.

[10] عبد الحميد الأرقش، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مرجع سابق، ص20.

[11] مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مبارك بن محمد الميلي، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ص93

[12] **ينظر:** Berthier Pierre, La bataille de l'oued el-Makhazen : dite bataille des Trois Rois (4 août 1578), Paris: Éd. du C.N.R.S, 1985.

طنجة، وتحالف معهم بشرط أن يمنحهم المدن الساحلية على أن يقيم المتوكل دولته فيما تبقى من المناطق الداخلية المغربية، وهكذا وقعت معركة وادي المخازن التي كان الخاسر الوحيد فيها هو المغرب الأقصى، أين لقي في المعركة ثلاثة ملوك حتفهم وهم الملك عبد الله والملك البرتغالي سيبستيان والمتوكل.

ورث أحمد المنصور حكم الدولة السعدية، ويعتبر حكمه أحد أزهى عصور الدولة السعدية حيث توسعت الدولة، ففي "عهده غزى المنصور السودان الغربي وبلاد غانة بين سنتي 1590-1591م، أين بدأ عصر جديد من التجارة الصحراوية، بالإضافة إلى تهاطل ثروة الذهب عليه، وكوّن المنصور من أبناء السودان ما يعرف بجيش الرقيق".[13]

لكن موت المنصور سنة 1603م أدى إلى تقهقر رهيب للدولة السعدية، حيث تراجع نفوذها ودخلت مرحلة الصراعات الطويلة بين الأبناء، وحتما فإن هذا قد أثر بشكل جلي على الدولة، بالإضافة إلى رفض الكثير من قبائل سوس الانصياع لمطالب المخزن المرهقة.

دارت المعارك بين الأشقاء حيث انهزم المولى زيدان أما جيش أخويه فارس والمأمون في صراعهم على فاس، حيث دخل المأمون فاس واستقل بها لنفسه بعد أن انقلب على شقيقه فارس، في حين التجأ المولى المأمون زيدان إلى الأتراك في تلمسان ثم إلى سجلماسة التي بايعه أهلها سنة 1607م.[14]

هاجم زيدان فاس ودخلها لفترة من الزمن، أين أعاد أبو فارس ومحمد الشيخ فتحها سنة 1609م، ولم تتوقف الصراعات عند هذا الحد أين انتقلت للأبناء مجددا فقتل عبد بن المأمون عمه فارس سنة 1609م، واستقل لفترة بالحكم، أين تمكن زيدان من الاستيلاء على العرش وبقي

---

[13] عبد الحميد الأرقش، مرجع سابق، ص22.

[14] عبد الحميد الأرقش، مرجع سابق، ص23.

على رأسه إلى غاية سنة 1627م، أين خلفه ابنه عبد الملك بن مروان الذي قتل سنة 1631م، ثم تولى خلفا له الوليد بن زيدان الذي قتل هو الآخر سنة 1636م، ثم الشيخ بن زيدان إلى أن قتل عام 1653م، ثم ابنه العباس أحمد الذي قتل عام 1658م.[15]

وهكذا فإن هذا الصراع والتقتيل كان لابد من أن يفجر الدولة وينهك طاقتها ويظهر قوى جديدة، فظهرت حركات دينية تطالب بالجهاد، وتوجيه الرأي نحو الخارج، فظهرت حركة أبي محلي، سنة 1611م، والحركة العياشية تحت قيادة محمد العياشي التي انكسر شوكها سنة 1641م، ثم الحركة الدلالية التي انطلقت من منطقة الدلاء تحت قيادة زعيمها محمد بن أبي بكر أين تمكنت من هزيمة الجيش السعدي في معركة بوعقبة.[16]

وأعلن مولاي الرشيد نفسه سلطانا على المغرب بعد مقتل آخر السلاطين السعديين سنة 1659م، أين احتل مراكش سنة 1668م وأعلن قيام دولة العلويين[17]، وهكذا انتهى عهد السعديين التي كانت أول دولة عربية شريفة تحكم المغرب منذ دولة الأدارسة.[18]

2- الدولة العلوية 1659-1912م.

يرجع أصل العائلة العلوية إلى الحجاز حيث انتقلوا إلى المغرب الأقصى في نفس الفترة التي انتقل فيها السعديون، ويرجع المؤرخون مؤسسها إلى الشقيقين محمد الشريف والرشيد.[19]

---

[15] شوقي عطا الله الجمل، مرجع سابق، ص197.

[16] عبد الحميد الأقرش، مرجع سابق، ص26.

[17] صالح العقاد، مرجع سابق، ص63

[18] ينظر: .Rivet Daniel, Histoire du Maroc: de Moulay Idrîs à Mohammed VI, Fayard, 2012.

[19] محمود علي عامر، مرجع سابق، ص77.

شب الخلاف بعدها بين الأخوين، فسار المولى محمد من سجلماسة إلى أخيه الرشيد يقصد مقاتلته والقبض عليه، غير أن المولى محمد هو من توفي في معركة أنقاد سنة 1664م، وهكذا انتقلت السلطة إلى شقيقه الرشيد.[20]

بدأ الرشيد طريقه في عملية تشييد وبناء الدولة العلوية، فقضى على تمرد ابن أخيه المولى ثم وجه أنظاره صوب فاس، حيث يذكر صاحب النزهة: "أن أهلها قد أصروا على مبايعته بعد أن حكم السيف في رؤسائها وأفناهم قتلا، فتمهدت البلاد واجتمعت الكلمة".[21]

دخل الرشيد فاس بعد أن حارب الشيخ أرارس سنة 1666م، وهكذا أعلن نفسه سلطانا على المغرب الأقصى، حيث خضعت له بسقوطها كل من أنجاد وتازا وتافيللت والريف، ثم استمر العلويون في بسط نفوذهم فأخضعوا كلا من إقليم طنجة ومراكش عام 1668م.[22]

خلف إسماعيل شقيقه الرشيد إثر وفاته سنة 1672م، وبقي على هرم السلطة أكثر من خمسين سنة أي بين سنتي 1672-1727م، حيث اشتد عود الدولة العلوية في عهده، فتمكن من التغلب على معارضيه مثل: شقيقه هارون في تافيللت وابن أخيه أحمد بن محرز في مراكش والسوس، ودخل في صراع مع العثمانيين في الجزائر.[23]

وقام إسماعيل بنهج طريق السلطان السعدي المنصور، فأقام جيشا منظما من السودان، وضم إليه الأسرى المسيحيين، ويذكر فرانسيس بروك "أن السلطان إسماعيل اشترى سنة 1688م

---

[20] محمد بن محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها، ج1، تح. إدريس بوهليلة، دار أبي الرقراق، الرباط، 2005، ص266.

[21] جمال بن الطاهر، تاريخ المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مرجع سابق، ص28.

[22] محمود السيد، تاريخ المغرب العربي -ليبيا-تونس- الجزائر- المغرب- موريتانيا، مؤسسة جامعة الشباب، مصر، 2000م، ص243.

[23] المرجع نفسه، ص244.

ثلاثمائة أسير فرنسي من الجزائر، ورفض دفع مبالغ شرائهم وطرد البعثة الجزائرية مهددا إيّاهم بقطع رؤوسهم، فرد عليه الداي بأن أرسل جيشا من خمسين ألف مقاتل، تمكن من هزيمة جيش السلطان ودحرهم في تازة"، الأمر الذي دفع السلطان إلى الرضوخ ومنحهم ثمانية وأربعين بغلا محملة بالذهب وأحصنة وأثاثا تبلغ قيمته مائتي ألف كراون".[24]

بلغ الجيش المغربي في عهد السلطان إسماعيل مائة وخمسين ألفا، وبهذا الجيش استطاع السلطان استعادة الكثير من الثغور المغربية التي كانت بيد الاسبان، فاسترجع سنة 1681م المعمورة واستولى على طنجة التي كانت بيد الإنجليز سنة 1684م حيث نقل إليها سكان الريف[25]، واستولى أيضا على لارش سنة 1689م وأرزيلا سنة 1691م، كما حرر مليلة.[26]

لكن وبمجرد وفاة المولى إسماعيل حتى ظهرت الانقلابات فتمرد عبيد البحاري الذين كانوا يشكلون جزءا هاما من الجيش المغربي، وأصبحوا يملكون اليد الطولى في تعيين وعزل السلاطين، فقد عزلوا السلطان عبد الله خمس مرات كاملة بين سنتي 1727-1757م، أين عاشت البلاد أزمة عرفت بأزمة الثلاثين سنة.[27]

---

[24] Francis Brooks, Barbarian Cruelty, Being A True History of the Distressed Condition of the Christian Captives under the Tyranny of Mully Ishmael Emperor of Morocco, and King of Fez and Macqueness in Barbary, In which is likewise given a particular Account of his late Wars with the Algerines. The manner of his Pirates taking the Christians and Others. His breach of Faith with Christian Princes. A Description of his Castles and Guards, and the Places where he keeps his Women, his Slaves and Negroes, With a particular Relation of the dangerous Escape of the Author, and two English Men more from thence, after a miserable Slavery of ten Years, London: Printed for J. Salusbury at the Rising-Sun in Cornhil, and H. Markman at the King's Arms in the Poultry, 1693, P85.

[25] **ينظر:** Childs John, The Army, James II and the Glorious Revolution, Manchester, University Press, 1980.

[26] محمود السيد مرجع سابق، ص30.

[27] محمود علي عامر، مرجع سابق، ص30.

وما إن تولى المولى السلطة حتى همّ في إضعاف طائفة جيش العبيد، وفرّق شوكتهم بين القبائل، فيذكر الناصري بقوله: "قصد بتفريقهم دفع غائلتهم وهوين عصبيتهم... فاستراحت الدولة من شرّهم".[28]

ولتنويع الدخل راح المولى محمد ينشئ الموانئ للتجارة الخارجية، حيث عقد المعاهدات مع الدول الأوربية، ورغم الاستقرار الذي ساد عهده إلاّ أن ابنه اليزيد ثار عليه، حيث استولى على الحكم بعد وفاة والده سنة 1790م، ولم سوى سنتين أين انتفظت ضدّه هو الآخر قبائل الحوز وقتلته سنة 1792م، ونصّبت مكانه المولى هشام.[29]

وهكذا انقسمت البلاد وأصبحت قبائل متناحرة، فعيّنت بلاد الهبط سليمان شقيق السلطان هشام حاكما عليها، فجعل فاس مركزا لحكمه وعزل شقيقه هشام الذي ورغم محاولات التمرد التي قادها إلاّ أن كلّها باء بالفشل الذريع، حيث بقي على سدة الحكم لغاية سنة 1822م. وما إن توفي سليمان حتى بدأ التدخل الأوربي في المغرب يزداد بشكل واضح وجليّ، "وقد تزامن التدخل الأوربي في الشأن المغربي مع الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، لكن مقاومة الأمير عبد القادر خلال الفترة بين سنتي 1832-1848م أخرت احتلال المغرب".

وفي سنة 1859م اعلن الاسبان الحرب على المغرب، وقاموا باحتلال تطوان وذلك بعد أن ألحقوا الهزيمة بالجيش المغربي، ثم عقدوا الصلح مع السلطان مقابل أن يدفع مليون ريال لأخلاء المدينة، وما إن احتل افرنسيون تونس سنة 1881م حتى بدؤوا في تجهيز العدّة لاحتلال المغرب الأقصى[30]

---

[28] ينظر: الناصري، ج06، مصدر سابق.

[29] محمود علي عامر، مرجع سابق، ص32.

[30] محمود السيد، مرجع سابق، ص250.

وفي عام 1908م استطاع الفرنسيون من تدبير فتنة وسط العرش المغربي، حيث أوعزوا إلى عبد الحفيظ شقيق السلطان عبد العزيز بالانقلاب على شقيقه وتولي الحكم مكانه، وهكذا أصبحت مراكش تحت الحماية الفرنسية، وأمام هذا الوضع تنازل السلطان لابنه عبد الحفيظ عن الحكم نتيجة اتفاق وقعه الفرنسيون معه سنة 1912م.[31]

[31] محمود السيد، مرجع سابق، ص251.